الفصل الثاني

الصعود والهبوط

الداء والدواء

من البديهي أن الإسهاب في الحديث عن قصة البطل المظفر صلاح الدين الأيوبي لا بد وأن يسبقه إيضاح لحجم الإنجاز الذي نجحت هذه الشخصية في تحقيقه. وبالتالي فإن القيمة الحقيقية لذلك الإنجاز إنما تتجلى عند مقارنة الوضع المتردي الذي كانت الأمور قد آلت إليه قبل ظهور صلاح الدين، بالحال الذي تبدل نتيجة الصحوة التي قادها ذلك القائد الفذ. ومن الضروري معرفة إلى أي حد تردت الأوضاع بالأمة حينذاك حتى يكون هناك إدراك دقيق لمدى احتياجها إلى شخصية مثل صلاح الدين الأيوبي. ولذلك فلسوف نعرض في فصلين لأحوال الأمة قبل تولى صلاح الدين مقاليد الأمور. ففي هذا الفصل يكون الحديث عن عصر ما قبل صلاح الدين، في حين يتناول الفصل القادم ملابسات الوضع قبيل ميلاده مباشرة. ولما كان عنوان الفصل الذي بين يدينا يشير إلى مقدرات وآمال وإنجازات الأمة فكان لا بد أن يكون الحديث عن سيرة صلاح الدين مسبوقا بعودة إلى مراجع السير والمغازى بما تحويه من تاريخ أمجاد الأمة الإسلامية حتى يترسخ شعور التنكر لمرحلة الضعف التي وصلت إليها الأمة حاليا لدرجة أن التصنيف الذي يلحق بنا يجعلنا من دول العالم الثالث، وهل نحن في انتظار مثلا أن ينحدر بنا التصنيف إلى أقل من ذلك؟! ما أصعب تقبل الوضع الحالي عند مقارنته بما كان عليه في الماضي.

ليس النصر بالعدد والعدة... ولكن النصر من عند الله

ولذلك، كان لا بد من البحث عن أسباب الانحدار الشديد الذي تعيشه الأمة حاليا بعد أن قدر لها سيادة العالم في وقت من الأوقات. فمن أين إذن جاءت هذه الانتكاسة؟ في الواقع،الإجابة على ذلك تتطلب استعراض القصة من أولها، أي منذ فجر الإسلام وبعثة الرسول ﷺ. وكما نعلم، بعث الرسول الكريم في مكة ثم انتقل إلى المدينة مهاجرا، ثم بدأت المناوشات والمعارك بين المسلمين وبين المشركين. وكانت غزوة بدر هي أولى هذه المعارك والغزوات. وفى ذلك الوقت كان المجتمع الإسلامي لا يتعدى ألف فرد. وعندما أمر الرسول بالجهاد والخروج في سبيل الله خرج معه إلى بدر ٣١٣ مجاهدا في حين بلغ عدد المقاتلين من قريش الألف... أي ثلاثة أضعاف عدد المسلمين! ومع ذلك كان النصر حليفا للمؤمنين. أما في أحد فقد زاد عدد المسلمين إلى سبعمائة في مواجهة ثلاثة آلاف من المشركين. وبالرغم من هزيمة المسلمين في أحد إلا أن انسحابهم دون وقوع أي منهم بالأسر أدى بالتاريخ إلى عدم تسجيل هزيمة حقيقية. ثم كانت موقعة الخندق التي شهدت هجوم عشرة آلاف من مشركي قريش ليتصدى لهم ألف وأربعمائة مسلم ويردوهم عن آخرهم على أعقابهم خاسرين. وفى خيبر وصل عدد اليهود إلى أحد عشر ألف مقاتلا في مواجهة ألف وأربعمائة مسلم كتب لهم الانتصار.

وعند التمعن في كيفية انتصار فئة قليلة على فئة كثيرة يبطل العجب بالرجوع إلى قول الله تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[البقرة:٢٤٩].

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الأنفال].

﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ۚ﴾ [الأنفال:١٧]

ولا شك أن قراءة هذه الآيات القرآنية تجعل الواحد منا يدرك أن الانتصارات التي حققها النبي ﷺ والمؤمنون معه ما كانت إلا آيات ربانية لنتبصر ونتوصل من خلالها إلى أن الارتباط بربنا سبحانه وتعالى والتوكل عليه وحسن النوايا هي التي أتت بالانتصار.

ومصداقا لذلك يحضرني موقف الصحابي الجليل عبد الله بن رواحة في غزوة مؤتة. في تلك الغزوة خرج ثلاثة آلاف مقاتل مسلم من المدينة لمواجهة أقوى الدول في ذلك الوقت نظرا لتحكمها في النظام العالمي، ألا وهى دولة الروم التي حشدت وقتذاك مائتي ألف مقاتل. وعلى مشارف المعركة انتاب المسلمين شيء من الرهبة عند إدراكهم أن الواحد منهم يواجه سبعين من الروم، ألا أنهم كانوا على يقين بأن الرسول ﷺ لم يأمرهم بإلقاء بأنفسهم إلى التهلكة. ولما كان هناك خلل نسبى في ميزان القوتين المتوجهتين، تبادر إلى ذهن البعض أنه ربما ينبغي الاستئذان من النبي الكريم في العودة دون قتال. وقد أثار تردد بعض المسلمين حفيظة عبد الله بن رواحة ﷺ، وأراد أن يذكر إخوانه ويضرب لهم ولسائر المسلمين في كل زمان ومكان مثلا من أمثلة الإخلاص لله تبارك تعالى فقال مقولته الشهيرة " يا قوم، إن التي تكرهون هي التي خرجتم من أجلها". وقد عبر بذلك عن دهشته من ضيق البعض بالموقف رغم أنه لن يثمر إلا عن إحدى الحسنيين، إما النصر أو الشهادة، فإما أن يعيش المسلم بعزة وكرامة وإما أن يرزق الشهادة في سبيل الله عز وجل. وأضاف بن رواحة " يا قوم، ما ننتصر بعدد ولا عتاد، ولكن ننتصر بالإيمان الذي هو في قلوبنا". ولا بد أن يعلم كل مسلم أن سرية مؤتة أتت بأعظم خطة انسحاب عسكري في التاريخ حيث استطاع القائد العسكري المحنك خالد بن الوليد أن ينسحب بالجند إلى المدينة محققا قدرا من الانتصار العسكري على الروم، أقوى الدول في ذلك الحين.

العروة الوثقى وحبل الله المتين

عند استعراض الأحداث التي سبقت فتح مكة، نجد أن النبي ﷺ قد عانى من الإيذاء الشديد حتى أنه كان على وشك أن يقتل، وعند ذلك أذن الله له بالهجرة إلى المدينة، ولكنه يعود ليفتح مكة حتى وإن انقضت سنين طويلة. ولذلك فإن تحقيق الانتصارات وقيام الأمم يحتاج إلى سلاح استراتيجي هو الأمضى على الإطلاق ومن خلاله يتثنى لنا النهوض كأمة مرة أخرى، ألا وهو الحرص على إرضاء الله عز وجل. وقد يظن البعض أن هذا الفكر مبالغ فيه، ولكن لننظر إلى ما يقوله عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى جيش سعد بن أبى وقاص عند خروجه للقادسية "يا جند الله، اتقوا الله". ولنلحظ أن أول أمر يصدر عن الخليفة، حاكم البلاد والقائد الأعلى للجيوش كلها، كان الأمر بتحري تقوى الله عز وجل، إذ يضيف"اتقوا الله، فإننا لا ننتصر بكثرة عدد ولا عتاد ولكن ننتصر بالإيمان الذي هو في قلوبنا وبطاعتنا لله وبمعصية عدونا لله، فإن عصينا الله كنا مثلهم فانتصروا علينا لأنهم أكثر عددا وأكثر عتادا".

وفى واقع الأمر، هذا هو الحق بعينه والذي ضرب خالد بن الوليد مثالا عليه بعد أن خاض حروب الردة وانتصر فيها بنفس العدد والعتاد على كل الجيوش التي واجهته بالجزيرة العربية بأسرها. وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه قد اتخذ موقفا حاسما من المرتدين وأمر بهذه الحروب رغم التثبيط الذي تعرض له من بعض المحيطين به. وبعد الانتصار الذي تحقق في نهاية هذه الحروب أصدر أبو بكر أمره إلى خالد بن الوليد بفتح العراق. ونجح خالد بالفعل في تحرير العراق من الفرس الذين حكموها مئات السنين. والمدهش أن ذلك تم في مدة لا تتجاوز الخمسين يوما خاض فيها أكثر من خمسة عشر موقعة حربية منها موقعة "الجزيرة" التي واجه فيها عشرون ألف مسلم جيشا قوامه أربعمائة وخمسون ألف مقاتل! ودارت تلك المعركة واحتدم الوطيس ما بين قتال وطعان، ولكن ما لبث أن تحقق النصر للمسلمين.

وعند مقارنة هذه الانتصارات وتلك العزة بأحوالنا الحالية يتضح أن ثمة شيئا ينقصنا ... أو أمرا معينا لا نسيره كما ينبغي... وهذا النقص ليس هو بالعدة أو العتاد، فإن النصر يكتب لسبب آخر غيرهما. والسبب الحقيقي لانتصار المسلمين في ذلك الوقت يصيغه لنا ربعي بن عامر الذي خرج إلى القادسية مع جيش سعد بن أبي وقاص فاتح المدائن بغرض تبليغ أهل العراق بالإسلام. فقد حدث أن وقف ذلك الصحابي بين يدي كسرى المحاط بمظاهر الأبهة من خدم وحشم وملبس وقصر فخم، وكان جزءا من حوارهما ما يلي:

" (كسرى) : لم جئتم إلى بلادنا؟

(ربعي بن عامر) : جئنا لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة . ولم نأتكم بكثرة عدد ولا عدة، نحن جئناكم برجال يحبون الموت كما تحبون الحياة".

وقد عبر الرد الذي ألقى به ذلك الصحابي الفاهم لدينه والواثق بقوة إيمانه عن حقيقة مهمة تبين معادن الرجال الذين فتحت على أيديهم البلاد وتحققت الإنجازات وجاء العز. وهذا هو نفس مفهوم أبي بكر الصديق رضي الله عنه، والذي كان قد أمر بهذه الحملة إلى العراق. وأثناء سير المعارك بالعراق أرسل خالد بن الوليد إلى أبى بكر طالبا المدد حيث كان يواجه عدوا يفوقه في العدد بكثير. وبعد ثلاثة أسابيع من الانتظار، أرسل إليه أبو بكر صحابي اسمه القعقاع بن عمرو التميمي، فأثار ذلك بالطبع دهشة خالد الذي كان يقاتل الفرس بالآلاف، فكان رد الخليفة ردا تملؤه الثقة والعزة "لا يهزم جيش به القعقاع بن عمرو التميمي!". وبالفعل لم يمن خالد بن الوليد بأية هزيمة على الإطلاق طيلة معاركه بالعراق. وفى الوقت نفسه كانت جيوش الروم بالشام قد تجمعت بموقع اسمه اليرموك. فبعد أن قضى خالد على معظم جيوش الفرس في العراق، كان مطلوبا منه

أن ينتقل للشام ليحقق انتصارا عسكريا غير عادى على أكبر دولة في تلك الفترة الزمنية. ولم يتحقق ذلك الانتصار المدوي إلا بأربعين ألفا من الجند مقابل نصف مليون من الروم.

عزة الانتماء للإسلام

ليس بمقدورنا أن نتناسى كل هذا التاريخ وكل هذا الزخم الذي عاشته أمتنا. فهل فعلا هذه الأمة هي نفسها التي اغتصب بيت مقدسها، وصارت أراضيها مستعمرة، وحل بها من الضعف ما يندى له الجبين خزيا؟! هل من الممكن أن يكون الحديث في الحالتين عن نفس الأمة ؟

إنما الأمة العزيزة هي التي كانت قائمة أيام اتساع الأرض الإسلامية في عهد هارون الرشيد مما دعاه إلى مخاطبة إحدي السحب وهو يطل إليها من شرفة قصره فيقول لها "اذهبي شرقا أو غربا، اذهبي أينما شئت، فسيأتي خراجك لبيت مال المسلمين!". وهو ما يعني أن المطر الذي تسقطه تلك السحابة لا مناص له إلا وأن يسقط على الأرض الإسلامية المترامية الأطراف. وفى نفس الفترة كان الأمير البيزنطي نكفور حاكما لدولة الروم ودافعا للجزية كل سنة ليحمى حدوده من المد الإسلامي. وفى أحد الأعوام رفض دفع الجزية عن يد وهو صاغر، بل إنه طلب من هارون الرشيد أن يرد إليه كل الأموال التي كانت قد دفعت في السنوات الماضية. فما عاد ذلك عليه إلا وبالا حيث قتل في عامورية وكانت موقعة حاسمة سقطت فيها تلك المدينة رغم كونها ثاني أهم المدن الرومية بعد القسطنطينية في ذلك الوقت. وبذلك خرج رد هارون الرشيد عن الخط التقليدي من مفاوضات وتبادل المراسلات إلى الحيز العملي، فنظم أبو تمام قصيدة في ذلك الخصوص جاء فيها بيت الشعر التالي:

السيف أصدق إنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

وتزداد حسرتنا لما حدث ولازال يحدث لنساء المسلمين من هتك للعرض وبقر للبطون في البوسنة والهرسك، ثم الشيشان، ثم أفغانستان، ثم العراق، ومن قبلهم فلسطين. فهل من المعقول أن نقارن ذلك الهوان بما كانت عليه الأمة في وقت من الأوقات من غيرة على الأعراض ؟ كيف يتسنى لنا التنكر لرد فعل الخليفة المعتصم عندما وصلته الأخبار بأن أسيرة مسلمة في أسر قيصر الروم قد أسيء إليها بمنع مياه الوضوء عنها، فما كان منه إلا أن أرسل إلى قيصر مكتوبا بدأه بالعبارة التالية "من أمير المؤمنين المعتصم بالله إلى كلب الروم". فلنتأمل لغة الخطاب التي لا تخلو من العزة والإدراك التام للرسالة التي يراد توجيهها من خلال حجم الكلمات ووقعها على المرسلة إليه. واستطرد المعتصم خطابه كالتالي "قد علمنا ما صنعت مع الأسيرة المسلمة، فإن لم ترسلها معززة مكرمة في قافلة من النساء محملة بالهدايا والإعزاز لأمة الإسلام لنأتينك برجال أولهم عندك وأخرهم عندي، والرد وقتها ستراه بعينك ولن تسمعه بأذنك". فماذا فعل قيصر؟ بالطبع لم يسعه إلا الامتثال لأوامر المعتصم. فعادت الأسيرة المسلمة إلى بغداد يوم قالت "وا إسلاماه" فوجدت من يسمعها.

ما أصدقك يا رسول الله... صلاة الله وسلامه عليك

مهما تطرق بنا الحديث فمازال يراودنا شعور الصدمة من التدهور الحالي لأمتنا بعد أن كانت الفتوحات الإسلامية تتنامى شرقا وغربا كاللؤلؤ المنثور. فالشرق يشهد فتح إيران وأفغانستان وباكستان حتى تنسمت كل من الهند والصين نسيم الإسلام، فها هو قتيبة بن مسلم الباهلي يصل إلى بحر الصين ليقول "لو أني أعلم أرضا وراء هذا البحر لخضته حتى أفتحها للإسلام". أما شمال أفريقية فقد شهد اكتساح المد الإسلامي عبر تونس والجزائر والمغرب حتى إن عقبة بن نافع اعتلى

صهوة جواده على ضفاف البحر وقال محدثا إياه "لو أنى أعلم أرضا خلف هذا البحر لخضته معك". وامتد الفتح شمالا لتكوين دولة الإسلام بالأندلس بما حوته من مدارس وجامعات يفد إليها أبناء أمراء أوروبا. وعلى سبيل المثال فعندما أراد هارون الرشيد في يوم ما أن يكرم ملك فرنسا، بعث إليه بساعة لقياس الوقت. ولما لم يكونوا على دراية بذلك الاختراع، ظن البعض منهم أن بداخلها جني يحركها. ولم يكتف المسلمون وقتئذ بذلك بل وصلوا إلى مدينتي بوردووليون الفرنسيتين. فكيف يدور بخلد المرء أن ينسحب ذلك المد الإسلامي ويتبدل هذا العز إلى النقيض؟

وللرد على هذا السؤال فلنتتبع الأحداث التي استطاع عبد الرحمن الغافقي في بدايتها أن يصل إلى حدود ألمانيا على أثر فتحه لمعظم أراضى فرنسا، من أجل تحويل البحر الأبيض المتوسط إلى بحيرة إسلامية. وإذا ببوادر الاتحاد الإستراتيجي بين ألمانيا وفرنسا تتجلى من خلال المباحثات وتبادل الآراء بينهما لإيجاد حل للمأزق الذي يواجهانه. فكان على هاتين الدولتين الاختيار ما بين الاستمرار في مواجهة المسلمين عسكريا أو مفاوضتهم لعقد المعاهدات معهم وتجنب الاصطدام بهم. وأتاحت تلك المباحثات الفرصة لشاب عسكري فرنسي في الثلاثينيات من عمره يدعى شارل مارتال أن يعرض ما توصل إليه بعد دراسته لأسباب انتصار الأمة الإسلامية ونقاط ضعفها والتي من الممكن أن تؤدى إلى هزيمتها. ولقد اكتشف مارتال أن قوة أعدائه ترجع إلى توحدهم. ففي أحد تلك الاجتماعات شرح مارتال للحاضرين سبب تفضيله لمهاودة المسلمين فيقول "الرأي عندي ألا نواجههم فهم كالسيل العرم يجرف كل ما أمامه وقلوبهم متوحدة حتى صاروا كالحصون المنيعة. ولذا فالأفضل أن نتركهم حتى تدخل الدنيا في قلوبهم فيتنافسوها على قطعة أرض، أوقصر منيف، أوكرسى حكم، وساعتها تتفرق القلوب فتكون نهايتهم".

وعند تناول كلام شارل مارتال بالتحليل نجده ينم عن ذكاء الشخص المفكر في الأحوال المحيطة به، والبعيد عن الغفلة المضرة لصاحبها. فلقد درس ذلك الشاب الفرنسي فكر الإسلام وتعلم منه أهمية التفكر في الأمور الهامة وتدبر حسن التصرف فيها. وفى الواقع فإن جوهر هذا الكلام لا يختلف عما رواه ثوبان عن رسول الله ﷺ الذي قال:**"توشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها"**. قيل أمن قلة يومئذ يا رسول الله؟ قال: **"بل أنتم كثير ولكنكم كغثاء السيل. ولينزعن الله من قلوب عدوكم المهابة منكم وليقذفن في قلوبكم الوهن."** قيل: وما الوهن يا رسول الله؟ قال: **"حب الدنيا وكراهية الموت"** حقيقة، هو بالفعل هذا الوباء الذي استشرى في الأمة في الوقت السابق على ظهور صلاح الدين، فكم كانت هناك من انقسامات شديدة دعواها "نفسي ... نفسي..." أما دعاء "أمتي... أمتي..." فلم يعد له وجود وقتذاك. وتطل علينا "بلاط الشهداء" كموقعة ما بين عبد الرحمن الغافقى وشارل مارتال، وكان ذلك بعد فترة انتصارات عبد الرحمن الغافقى الأولى التي أخذ على أثرها مارتان في تدبر الأمر كما سبق أن أفضنا. انتصر عبد الرحمن وجنده في بداية المعركة، ولكن الكارثة تكمن في أننا كمسلمين نغفل عن أخذ العبرة من الهزيمة. في أحد انهزمنا فأنزل الله سبحانه وتعالى قوله:

﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾ [آل عمران:١٥٢].

في أحد، نتجت الأزمة عن اختلاط القلوب بشائبة حب الدنيا. وللأسف، تكرر الحال في "بلاط الشهداء" حيث انتصر جند عبد الرحمن في مطلع الأمر، فما لبثوا أن تركوا المعركة والتفتوا إلى الغنائم فتفرقوا وبدأ مارتال في إعادة تجميع قواته، وفى أربعة الأيام التالية أجهز على المسلمين دفعة واحدة ولم يترك أحدا من جيش عبد الرحمن الغافقى... أبيدوا جميعا عن بكرة أبيهم! وكانت آخر كلمة يتلفظ بها عبد الرحمن الغافقى حال استشهاده "وا إسلاماه !"

ضعف الإيمان... سبب الهوان

حقيقة، الإسلام يحتاج إلى رجال. فماذا حدث للرجال وأدى بهم إلى حالة الضعف المستشرية حاليا؟ الرد المباشر على هذا التساؤل يكمن في الانصياع للفردية والبعد عن الله عز وجل. أجل، ذاك هو الحق بعينه دون أدنى بعد عن الموضوعية. والتاريخ يروى لمن يريد أن يعتبر أن أسباب الانتصار، في المقابل، تجلت في التمسك بحبل الله والقرب منه تبارك وتعالى.

وبالعودة إلى أسباب الخيبة التي تعصف بنا نجدها تبدأ ببعدنا عن الله الواحد القهار وحرصنا على الاتجاه شرقا وغربا دون تحديد هدف نسعى للوصول إليه أو الاهتمام بما سوف يؤول إليه مصيرنا. في الواقع، أن أهم ما أطلبه من كل قارئ، الشاب والفتاة، الأب والأم،الجد أو الجدة، أن يشعر أن هذا الحديث وهذه الدعوة موجهان إلى كل منهم بصفة شخصية حتى نعى تماما كل سبب من أسباب تأخر عودة الانتصارات للأمة، أم أن هذا الأمر لم يعد يخص كل فرد على حدة؟ ويجدر بنا إذن التعرض لبعض مظاهر ضعف الإيمان حتى إن وجد القارئ أحدها ينطبق عليه تنبه له وعمل على التخلص منه حتى تتكون المقدمات المؤهلة لاستقبال الفكر السليم والسلوك الصحيح لصلاح الدين الأيوبي.

أول مظهر لضعف الإيمان يصب في سهولة ارتكاب المعاصي، حيث يقدم الواحد منا على ارتكاب المعاصي دون أن يكون هناك تأنيبا للضمير! وإذا كان الخطأ تجاه شخص مهم في حياة الفرد مثل رئيسه المباشر بالعمل أومن هو ذو سلطة أو تأثير عليه فإنه يحجم عن ارتكابه، أما إذا كان هذا الخطأ مستورا عن أعين الناس ولا شاهد عليه سوى الله فيتم ارتكابه دون أن يشعر مرتكبه بالذنب.

كما تعد قسوة القلب مظهرا آخر لضعف الإيمان حيث يقل تأثير وقع آيات الله على عباده. والغريب أن البعض قد يتأثر لدرجة البكاء عند سماعه لأغنية أو متابعته

لمشهد تمثيلي مصور، في حين أنه لا يبالى بآيات القرآن التي تتحدث عن الجنة والنار أو بآيات الله المستنبطة من الأحداث والمجريات الحياتية.

ثم يأتي ذكر التقصير في إتيان المناسك التعبدية حقها في الخشوع كمظهر شائع للضعف الإيماني. وعلى سبيل المثال، يميل الواحد منا إلى تكرار سماع مقطع موسيقى أثار إعجابه مرات ومرات، ولكنه يتعجل الانتهاء من الصلاة، أو يؤخرها، أو يجمع ما بين فرضين أو أكثر. أما إذا كان الأمر متعلقا بالتزام نحو إنسان ذي أهمية معينة كصاحب العمل مثلا، فإن الاهتمام والإتقان يحلان محل التقصير طالما أن هناك عائدا ماديا محسوساً كالمرتب الشهري.

أما أحد مظاهر الضعف الإيماني الأكثر تفشيا في وقتنا الحالي فهو يتمثل في الشكوى الدائمة وضيق الصدر من أمور الحياة. وفى المقابل، قلما نجد من يغضب لمحارم الله. فإذا أقدم أحد الأشخاص على ارتكاب معصية على مرأى من الناس فهو للأسف لا يجد من ينهاه عن ذلك. ولكن عندما يكون الخطأ في حق شخص معين فغالبا ما يكون رد الفعل قويا. وطالما أن أغلبنا أصبح لا يعبأ بالأمة وإنما يصب كل اهتمامه على نفسه، فلا أحد يهتم بما حدث ويحدث في فلسطين والبوسنة وكشمير والعراق. فهل هناك من يعبأ بكل ذلك أم أن الأمر المهم أصبح ما يخص النفس ذاتها فقط؟ وعندما تصير الدنيا هي الشغل الشاغل للمسلم حتى أنه ينسى آخرته، فبم يجيب الله عندما يسأله تبارك وتعالى يوم القيامة عما فعله في دنياه؟

اللهم ردنا إلى دينك ردا جميلا

في الواقع، أن مظاهر ضعف الإيمان، المذكورة وغيرها الكثير، ترجع في جملتها إلى البعد عن الله عز وجل. وكيف لا نكون بعيدين عن بارئنا إذا كنا لا نقوم له ليلا تضرعا وانكسارا، تقربا واستسلاما، طالبين منه العفو والسماح والتوبة والعون؟! للأسف لم نعد نشعر بحاجتنا لفعل ذلك لأننا بعدنا عن الأجواء التي تقربنا من

الواحد الأحد. وبالتأكيد فإن القدوة الصالحة تعد من أهم ما نفتقده من أجواء معينة على تقوى الله تبارك وتعالى. وإذا سألت أي شاب عن قدوته يخبرك بأنه رسول الله ﷺ. إذن فلنراقب أفعالنا، أسلوبنا، طول أملنا. هل نحن متبعون للنبي الكريم في كل ذلك بالفعل، أو أننا نعيش وكأننا مخلدون، غافلين عن البغتة التي يأتي فيها الموت. ومن أخطر آثار الغفلة وطول الأمل أنهما يشعران الإنسان أن الدنيا مقبلة عليه فينسى أو يتناسى أنها مجرد دار فناء في حين أن الآخرة هي دار بقاء.

ولكن طريق القرب من الله ليس بعيدا فمفتاحه التوبة النصوح الخالصة لوجهه الكريم وعنوانها الانكسار لله تعالى والخضوع له. فلتقبل إذن على خالقك... باكيا، راكعا وساجدا له، في مكان وزمان لا يراك فيهما إلا هو السميع البصير. أقبل على ذكر الله ودعائه تكون منه قريبا وبرحمته سعيدا في الدنيا والآخرة.

إن التقرب من الله لا بد له وأن يؤدى بنا إلى النهوض بأمتنا من جديد فهو بمثابة القاعدة الصلبة التي يحتاجها كل بنيان عال. ومن أمثلة الرحمة التي تتنزل على العبد المخلص لله ما قاله ربعي بن عامر عن المسلمين في عصره بأنهم رجال يحبون الموت كما يحب غيرهم الحياة، ففي حبهم الموت في سبيل الله ينالون رضوان الله عليهم ويدخلون الجنة.

المطلوب إذن هو أن يتفاعل كل منا مع ما سبق ذكره وأن يسترجع مع نفسه أسباب النجاح والفشل في أمور الحياة الدنيا والآخرة. وتطبيقا لذلك، فمن المفيد عمل جدول لكتابة الطموحات التي يسعى كل منا لتحقيقها، وتدوينها في جانب أسباب نجاح أي مشروع والتمسك بها، وفى جانب آخر الأسباب الشخصية للفشل والانحدار بهدف البعد عنها. وذلك كله يكون الغرض منه الشروع في اتباع بداية صحيح لأننا لن نحقق أي انجاز ما دمنا نتبع نفس الأسلوب الذي أدى بنا إلى هذا المنحنى الخطير. وليبدأ كل فرد إذن بالبحث عن الأسباب ليضعها في جدول

بغرض الإبقاء على الإيجابي منها وإصلاح السلبي ، عملا بهذه الدعوة لإصلاح شئوننا كلها في الدنيا والآخرة.

***